آداب

العدد 47
ISSN 0302- 8844
مجلة كلية الآداب جامعة الخرطوم
يوليو 2022

آداب Adab
مجلة كلية الآداب جامعة الخرطوم
Journal of Faculty of Arts. University of Khartoum

ISSN 0302- 8844

مجلة علمية نصف سنوية محكمة. تصدر عن كلية الآداب – جامعة الخرطوم

العدد 47. يوليو 2022م

هيئة التحرير

رئيس التحرير

أ.د. حمد النيل محمد الحسن

مدير التحرير

أ.د. أزهري مصطفى صادق علي

أعضاء هيئة التحرير

أ.د. يحيى فضل طاهر

أ.د. فيروز عثمان صالح

د. سلمى عمر السيد

د. هالة صالح محمد نور

الهيئة الاستشارية

أ.د. فدوى عبد الرحمن على طه

أ.د. على عثمان محمد صالح

أ.د. جلال الدين الطيب

أ.د. رقية السيد بدر

أ.د. تاج السر حران

أ.د. مبارك حسين نجم الدين

د. يونس الأمين

د. محاسن حاج الصافي

د. حسن على عيسى

توجه المراسلات باسم رئيس التحرير: كلية الآداب جامعة الخرطوم. ص. ب 321

أو ترسل على البريد الإلكتروني: adabsudan@gmail.com

المحتويات

المصطلحات النحوية في كتاب "المقتضب" للمبرّد بينَ الأصالة والتقليد دراسة وتحليل. د. أحمد حسن علي قرينات 20-1

اختلاف الإعراب في القراءات وأثرُه على المعنى في تفسير الطبري نماذج من سورة البقرة. (دراسة نحوية دلالية) د. حمزة الزبير إبراهيم إدريس 42-21

صورة الخليفة عبدالله في المخيال الشعري الشعبي لدى الشاعر أحمد ود سعد "دراسة أدبية ثقافية". د. إسحق علي محمد 68-43

واقع وسائل التواصل الاجتماعي في تنشيط الطلب على الفعاليات الترفيهية في المملكة العربية السعودية. د. عيد بن قعدان العتيبي 96-69

جره فخارية من موقع دادان (الخريبة)، المملكة العربية السعودية الموسم التاسع لعام 1433هـ/2012م.: دراسة تحليلية مقارنة. د. محمد بن معاضة بن غرمان الشهري 117-97

المسميات والتعبيرات والصيغ اللغوية الدالة على الشكوى في اللغة المصرية القديمة. د. وليد محمد صفائى 149-118

الثقافة المادية للطرق الصوفية وأثرها في فهم الثقافة السودانية. أ. هالة عبدالعال ساتي الحسن. د. عبدالرحمن ابراهيم سعيد علي 176-150

تقويم لمصنوعات حجرية في الجزيرة العربية والشام من أدواتِ صيدٍ إلى دُمى آدمية وعلاقتها بمثيلاتها عالمياً وبتطور الفكر والعقيدة. أ. د. عبد الرزاق بن أحمد راشد المَعْمَري 250-177

التأثيرات البيئية والجيومورفولوجية للعواصف الرملية في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. د. عبد الرحمن مبارك حسين العلي. أ.د. عباس الطيب بابكر مصطفى 290-251

قواعد النشر وشروطه

آداب مجلة علمية محكمة تصدر في يناير ويوليو من كل عام عن كلية الآداب جامعة الخرطوم وتقبل البحوث في مجالات الآداب والفنون والعلوم الإنسانية مع مراعاة الآتي:

1. ألا يكون البحث المقدم للمجلة قد نشر أو قدم للنشر في مكان آخر.
2. تخضع البحوث المنشورة في هذه المجلة للتحكيم العلمي الذي يتولاه أساتذة مختصون وفق ضوابط موضوعية.
3. تسلم نسختان مطبوعتان من البحث على معالج نصوص (حاسوب) مع أسطوانة مدمجة تحتوي على البحث. أو ترسل على البريد الإلكتروني adabsudan@gmail.com.
4. يراعى في البحث أن يتراوح حجمه بين 3000-5000 كلمة، ويرفق الباحث مستخلصاً باللغتين العربية والإنجليزية لبحثه بما لا يتجاوز صفحة واحدة (200) كلمة، ويذيل هذا المستخلص بما لا يزيد على خمس كلمات مفتاحية تبرز أهم المواضيع التي يتطرق إليها البحث. ويراعى أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على عنوان البحث واسم الباحث، والجامعة أو المؤسسة الاكاديمية وعنوان البريد والبريد الالكتروني باللغتين العربية والإنجليزية.
5. تنشر المجلة مراجعات الكتب بحدود (2000) كلمة كحد أقصى، على ألا يكون قد مضى على صدور الكتاب أكثر من عامين، ويدون في أعلى الصفحة عنوان الكتاب واسم المؤلف ومكان النشر وتاريخه وعدد الصفحات. وتتألف المراجعة من عرض وتحليل ونقد، وأن تتضمن المراجعة خلاصة مركزة لمحتويات الكتاب. مع مراعاة الاهتمام بمناقشة مصداقية مصادر المؤلف وصحة استنتاجاته.
6. أن يوثق البحث علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث في نهاية البحث. وترتب المراجع في نهاية البحث هجائياً على ألا تحتوي قائمة المراجع إلا على تلك التي تمت الإشارة إليها في متن البحث. يشار إلى جميع المصادر في متن البحث كالطريقة التالية (اسم العائلة. سنة النشر. الصفحة او الصفحات) مثال: (صادق. 2021. 14) (Adams. 2000. 14). وتوثق في قائمة المراجع والمصادر كما يلي:

للكتب وبحوث المؤتمرات:

- أحمد بدوي. **أسس النقد الأدبي عند العرب**. القاهرة، دار نهضة مصر، 1964م.

للمقالات والفصول في الكتب:

- قاسم المومني. "علاقة النص بصاحبه دراسة في نقود عبد القاهر الجرجاني الشعرية". **عالم الفكر**. الكويت: العدد الثالث يناير/ مارس 1997م. 113-128.

يراعي في المراجع الأجنبية نفس النمط

7. تعبر البحوث التي تنشرها المجلة عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة أو أية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث.
8. لهيئة التحرير الحق في إدخال التحرير والتعديل اللازمين على الأبحاث. وتعد هيئة التحرير رأي محكم المقال نافذاً بالنسبة لنشر البحث أو عدمه أو إدخال التعديلات التي يوصي بها المحكم.
9. لا تقبل البحوث والدراسات التي تعد لإكمال مطلوبات إجازة الرسائل الجامعية (الدكتوراه).
10. لهيئة التحرير الحق في رفض أي بحث مقدم لها دون إبداء الأسباب.

صورة الخليفة عبدالله في المخيال الشعري الشعبي

لدى الشاعر أحمد ود سعد

"دراسة أدبية ثقافية"

د. إسحق علي محمد

جامعة المغتربين – كلية اللغات

المستخلص

حاولت هذه الدراسة إجلاء صورة الخليفة عبدالله من خلال الشعر الشعبي لأحمد وسعد، وقدمت تمهيدا لذلك بمقاربة صورة الخليفة في نظر المهدي والتي مثلت المرجعية التي اعتمد عليها الشعر في وصف الخليفة. وقد جاءت صورة الخليفة في أشعار ود سعد ترجمانا لذلك مع إضفاء خصوصية الشاعر، وطبيعة الشعر الشعبي؛ خاصة في قربه من الناس وموسيقاه. قدم وسعد الخليفة من خلال صورته الشخصية وأسرته، وصورته بوصفه رجل دين ورجل سياسة، وكيف أنه يلبس لكل لون لبوسه من خلال قيم مرتبطة بكل وظيفة عبر تخييل شعري جميل. وربط ود سعد القيم بالبيئة الثقافية من خلال مفردات عكست طبيعة تلك المرحلة من عمر الدولة المهدية؛ مكّنت الدارس من قراءة صورة الخليفة في بيئتها مما أزال الكثير من الغبش الذي لحق بها من بعض المؤرخين، وهو ما أكدته الدراسة، واقترحت أن يعتمد الشعر وثيقة في قراءة التاريخ، واستكمال تاريخ السودان المكتوب بأقلام غير سودانية. وقد اعتمد الدارس منهجا وصفيا تحليليا تحت مظلة الدراسات الثقافية.

Abstract

This study tried to explain the image of caliph Abdullah through the public poems of Ahmed Wad Sa'ad and I presented on introduction for that with the closeness of caliph image in El- mahdi vision which represented a reference that the poetry adopted in the description of the caliph.

the caliph's image appeared in the poem of Wad Sa'ad as the translation for that showing the poet's particularity, and the nature of the public poetry, especially in it's closeness to the people and it's music.

Wad Sa'ad presented the caliph through his personal image, and his family and his description as a religion and policy man and how he wears for each occasion its suitable color it's wearing through values connected with each function through beautiful poetical imagination. And Wad Sa'ad had connected the values with cultural environment through terms that reflected the nature of that phase from the age of El-mahdi's state which enabled the learner to read caliph image in its environment which removed the injustice he had from some historians and this is enabled in the study and I suggested that poetry should be considered as a document in reading history, and completing of Sudan history that had been written by the foreigners. And the learner had adopted analytical descriptive method under the forum of cultural studies.

مقدمة في المفاهيم والمصطلحات

اعتماد الشعر وثيقة يُقرأ من خلالها التاريخ وأنماط الحياة، وعلاقات المجتمع قديم، ولكنه يظل ملحاً لمّا يتناول قضايا كانت محل اختلاف ليعبئ مساحة الالتقاء في نشدان الحقيقة.

شغل الخليفة عبد الله المؤرخين وعامة الناس واختلفوا في أحقيته للخلافة بدءاً من الأشراف وانتهاءً بالكبابيش. فضلاً عن طبيعة عصره التي شهدت صراعات وطموحات وقف المؤرخون إزاءها بين مؤيد ومعارض.

لم تخلُ -في رأيي- مقاربة حياة الخليفة من بعض التحامل كان وراءه ربما العصبية القبلية خاصة من أهل النيل، وقد سال حبر كثير في ذلك.

نهضت هذه الدراسة بمحاولة تقديم صورة الخليفة عبد الله من خلال المخيال الشعري الشعبي باعتماد ديوان أحمد ود سعد أنموذجاً، ولا يخفى دور الشعر في التاريخ العربي، وكذلك في دولة المهدية. ولذلك جاءت هذه الدراسة في مقدمة وعنوانين رئيسين، هدفت من خلالهما إلى إبراز صورة الخليفة عبدالله من جهة الشعر في مقارنة مخفيّة مع صورة المؤرخين، وقراءة العلامات الثقافة التي تؤشر الى طبيعة ذلك العصر وتلك المرحلة من عمر المهدية.

تناول العنوان الأول صورة الخليفة بين الواقع والخيال، والواقع الذي مثله المهدي، والخيال الذي مثلته مخيلة شعراء المهدي مع إبراز القيم في كل.

وأما العنوان الثاني؛ فهو صورة الخليفة في مجال ود سعد الشعري. وهو مناط هذه الدراسة، حيث وقفت عند رسم الشخصية وبطاقة التعريف، وشخصية الخليفة بين السياسة والدين، ثم ختمت بالصورة الفنية الشعرية بوصفها محمولاً للقيم، وختمت بإبراز أهم ما جاء في سياق التحليل وبعض التوصيات. ثم قائمة بالمصادر والمراجع والتي كانت من الندرة بمكان خاصة فيما يتعلق بالشعر في عهد الخليفة، وهو ما يفتح الباب لمزيد من البحث في هذا الجانب المهم.

اعتمدت الدراسة منهجاً وصفياً تحليلياً يقرأ من خلال الأشعار افتراض الباحث، ومن ثم تصديقه أو العكس، معتمداً في تفسير النصوص على ثقافة العصر وعلاقة السياسية بالواقع مما يدرج هذه الدراسة تحت الدراسات الثقافية التي" تهتم باخلاقيات المجتمع وحقوق الانسان

والعمل السياسي". (خليل. 2012م. 14).وبما هي وسيلة "لكشف أساليب الثقافة في صياغة مستهلكيها، وفي تسخيرهم كذوات برغبات وقيم محددة" (خليل. 2014م. 166).

الشعر في عهد المهدية

ظل الشعر لصيقاً بالدولة معبراً عن الحكام في عهد الفونج، وفي عهد الأتراك إلى أن جاءت المهدية فوجهت مجرى الشعر إلى الناس "يحثهم على الثورة على الواقع الظالم مع تصوير مبادئ المهدية الدينية والغيبية" (قاسم، وآخرون 1994م. 72)، مع الاحتفاظ بأغراض الشعر السابقة "المديح والرثاء والوصف"(محمد علي، 1966م. ص139).على أن دور المهدية ظهر في رفد الشعر بعنصر الحماسة والتغني بالبطولة والشجاعة، وأثار الحمية في نفوسهم. ومن سماته أنه"يمتاز بعنصر الخيال... وأن بعض نماذجه مفعم بالعاطفة الحارة؛ وبخاصة ذلك الشعر الذي نظم في رثاء المهدي"(محمد علي.1966م. 181). و(قاسم، وآخرون.1994م. ص22.).

المهدي أَلَلَّنَا في النفوس أولى *** القاسي الشدائد في رضا المولى

ما حسَّب حساب للترك والدولة *** ناسب لي إلاهُ القوة والحوله

نصر دين الرسول الصادق القولا *** به باهي الملائكة ذو المنّ والطولَى

(حسن 1974م. 30).

حبّ المهدي أولى من حبّ الناس أنفسهم، ومسوغ ذلك أن المهدي قاسى في رضا ربه ما قاسى في مواجهة دولة الظلم، وهو مهتدي في ذلك بقوة الله ولم يخذله ربه فتمكن من نصرة الدين مباهياً الملائكة بصنيعه هذا -على قربهم من الله- في وضوح لسيطرة الغيب بوصفه سنداً للمهدي وهو يمدحه. (حسن 1974م.34-35.)

يا النّورت الكون بعد ما أظلم *** لو رآك لقمان منك بتعلّم

غيرك الدرجات ما ليهن سُلّم *** يا فرقان الحق سعد الفيك لم

يا الإمام جودك سُحبُه يترزّم *** ربي أنشـاك خالي من الذّم

ربما هو نور الحق الذي عقب ظلمات الترك، ويظهر التباهي بحكمة المهدي التي تجعل نغمات الحكيم تلميذاً له. وهو السلم الذي يصعدون به إلى الدرجات العلا، ولولا السلم لما كانت درجات، ومن صعد بها قد سعد، وهو مثال الكرم والجود مثل المطر الذي تثقل سحبه بعضها فوق بعض، وبالجملة فقد أنشأه الله عارياً من الذّم. "لما كان أوان نزول الغيث المبارك فقد رأينا من باب الرفق بكم والشفقة عليكم والرأفة بحالكم أن نرفع عنكم الخدمات المتصلة بالغنائم... وذلك في شهري شوال وذي القعدة.(القدال 1973م. ص4).

وفي صورة المهدي:

يا مليح اللون يا أفلج يا أزج *** حبّك في أهل السعادة لزج

لي لذيذ قولك السمع ما مَج *** مجلسك أكثر من ثواب الحج

(حسن 1974م. 61).

المهدي سمح الصورة والصوت، وكلاهما محفّز للبقاء بجواره، زد على ذلك أن مجلسه يفوق ثوابه ثواب الحج.

العـالي أسـاسه *** القُبة الرّبعو ساسه

في جوف الليـل *** يضوي نبراسـه

والله وتـا اللـه *** في بطنك زينة الله

في الفضل ما بتباهى *** يا تومة قبة نبي الله

(حسن 1974م. 109).

قبة المهدي توأم الكعبة (قبة نبي الله) وهي قبة عالية مربعة الساس وتضيء الليل كون من في بطنها زينة خلق الله.

بطبيعة الحال مرّ شعراء كثيرون في عهد المهدية وعبروا عن تلك المرحلة، وجميعهم دار في فلك الأغراض الموروثة من عهد الأتراك مع إضفاء خصوصية المهدية بإعلاء قيم الدين والجهاد والإيمان بالغيب بوصفه الطريق للإيمان بالمهدية. وظل الشعر أكثر جودة وأعلى جودة فنية خلال فترة حياة المهدي حيث كان "أقوى خيالاً وعاطفة، وأسرع تأثيراً في النفس وعلوقاً بالقلب".(قاسم، وآخرون 1994م.22).

الشعر في عهد الخليفة عبد الله

ظل الشعر في عهد الخليفة عبد الله يدور في فلك سمات الشعر العامة في عهد المهدي من حيث الموضوعات واللغة والخيال. ولكنه استجاب لخصوصية المرحلة من حيث وضع الخليفة بعد الغياب السريع للمهدي، وضخامة المسئولية، وشبكة الصراعات في بناء الدولة على المستوى الداخلي، وتأمينها على المستوى الخارجي مع اعتماد منهج المهدية والوفاء له بإعادة الدين إلى جادته على مستوى العالم. كل ذلك جعل الخليفة قطب الرحى يدور في فلكه الشعر، ويبدو كأنه يأتمر بأمره، فقد "حل الخليفة عبد الله مكان الصدارة وأصبح مدح غيره تابعاً له في الشعر الذي مُدح به"(محمد علي.1966م. 230). وربطه بالمهدي دائماً.

خليفه المهدي ريس السـفينة *** ياحي وياقيوم زيد حبـو فينا

بينك وبين مهديك ما لقينا فاصل *** زي اتصال الدّم بين المفاصل

(حسن 1974م. 233 – 234).

"وفي مظاهر هذا الشعر أنّ معانيه محدودة جداً لا تكاد تخرج عن مدح الخليفة... وإذا مدح واحد من أمرائه أو قواده أو قضاته، فالمعاني محصورة في رضا الخليفة عنه... أما خصومه فهم موسومون بالضلال وسوء المصير، وهم في قبضته حيثما ولّوا وجوههم".(محمد علي.1966م.234). هذا التركيز على الخليفة عبد الله وسم الشعر بالفقر في مقداره وفي تنوعه

(محمد علي.1966م. 228). وفي علاقته بالواقع الاجتماعي والسياسي، حيث غاب الشعر عن المحطات السياسية الكبرى فلم يصور الصراع بين الخليفة والأشراف بقدر أهميته، وربما يكون ذلك بتوجيه غير مباشر من الخلفية كونه تعامل مع هذه (الفتنة) ببرود وذكاء مكناه من انتزاع البيعة من الأشراف والخليفة شريف عن طريق منشور يذيعونه في الناس يقرّون فيه بصلاح الخليفة وأنه امتداد للمهدي باعترافهم في المنشور أن المهدي ليلة وفاته حضرته حضرة ولّى فيها الخليفة عبد الله (محمد علي.1966م.197). وقد عبر الشاعر أحمد أبو شريعة عن ذلك: (حسن 1974م. 233).

يا صفوة الإسلام بشرانا بيكا *** المهدي قال أحكامك من نبيك

تمظهر فقر الشعر في تخلفه عن التعبير عن تلك المرحلة من عمر المهدية بالصورة المطلوبة التي تعطي الشعر معنى أن يكون صورةً لبيئته، فلم يساير الشعر الأبطال في حرب الحبشة كما ينبغي، وكذلك لم يصوَّر المجاعة التي حصدت الأنفس حصيداً، وسكت عن تصوير معركة كرري. كل ذلك دفع محمد محمد على لأن يقول"فإذا استثنينا قصيدة أو بقية قصيدة لم يبق بين أيدينا إلا شعر سفساف يكاد لا يصله بالشعر نسب"(حسن 1974م.233). ومع ذلك، فقد اهتم الخليفة بالشعر وعقد له مجلساً يدلك على ذلك ما دار في أزمة قبيلة الضبانية والشاعر أبو سن وكيف يدافع عن أهله شعراً، وكيف أن الخليفة استجاب لتأثير الشعر، وهي إشارة بقبوله، والاستماع له، وإقراره بأهميته، ودوره في سياسة الدولة.

أحمد سعد وشعره:

"وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدي بن عبدالله الى حبيبه في الله أحمد ولد سعد وفقه الله الواحد الصمد أما بعد فالذي نعلمك به أيها الحبيب أن امداحك وصل الينا وفهمنا مضمونه والحال يا حبيبي أنت مجاز في المدح ما استطعت ومهما شيت فإن المدح فيه إرهاب للكافرين وموعظة وتذكرة للمجاهدين لهو فيهم اي الكفار أسرع من النبل وهو كان ينشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقره وزجر من تعرض لناشده كما هو معلوم فأنت مجاز في ذلك وكذلك في الصلاة علىّ بايّ صيغة وبايّ لفظ قد أجزتك في ذلك وفقك الله وهداك للصواب هذا والسلام".(حسن 1974م. 16). النص أعلاه وثيقة تاريخية ورخصة لممارسة الشعر في ظل

الدولة بوصفة وسيلة من وسائل الجهاد وآلة من آلات الحرب المقدسة. وفيه خصوصية رفعت من مكانة ود سعد حيث خصه المهدي بخطاب. وفيه تشريع مستند إلى السنة بالممارسة. وفي النص معرفة ودراية بأهمية الشعر ودوره في إلهاب العواطف وإرهاب الأعداء، مع ملاحظة تركيز المهدي هنا على مفردة الإجازة حيث ذكرها ثلاث مرات. ولعل ذلك ما دفع الخليفة لعقد مجلس للشعر يؤمه الشعراء وعلى رأسهم كان الشاعر الحاردلو.

وقد عرّف وسعد نفسه بقوله: (حسن 1974م. 23).

يقول ود سـعد بُدِّي *** أعرِّفكم يا أهـل وُدِّي

تعريفا لا لشرف عندي *** سعدابي وآبائي ملوك شندي

فهو أحمد بن محمد بن سعد من أعيان قبائل الجعليين السعداب، تصوف في بداية نشأته على يد الشيخ حمد النيل الطريفي، وقد مارس كتابة الشعر الشعبي في سن مبكرة، وقد اشتهر بنظم المدائح النبوية. التحق بالمهدي في الأبيض شاعرا منافحا عنه وداعيا إلى نصرته (حسن 1974م. 21).

ولما آلت قيادة الدولة إلى الخليفة التحق به ومدحه: (حسن 1974م. 69).

عاجبني خليفة المهدي *** بحر الصلاح والزهد

يارب بيه لنا أهـدي *** شربا أحلى من الشـهد

قائد النفوس الابقـه *** وصاحب العناية السابقه

في الكون نفحاتك عابقه*** وعند الله حظوظك طابقه

ويبدو أن الأمر لم تسر كما كان يشتهي ود سعد فحصلت جفوة بينه وبين الخليفة، أو ربما انشغال الخليفة بإدارة الدولة خلق جفوة بين الرجلين مما دفع بود سعد لأن يستجدي الخليفة بالسماح له بملاقاته: (حسن 1974م. 57).

سيدي كلم لي الملازمية *** منك لا يحبسوني من الجيّه

كونها زيارتك تمح لي السيّه *** بيها نلت اليوم كل أمنية

وفي قصيدة أخرى يقول: (حسن 1974م. 114 -115).

يا خليفة المهدي *** أناجيتك معتـذر

مكشوف الرأس *** حفيان وامشي نتر

زعلي لومـا *** من تقلو منفـزر

كوني فـد ليلة *** عن بابك ما سهـر

طالبك بالمهدي *** وطالبك بالخضـر

قل ليّذنـبك *** إن قلّ إن كتــر

عنك عفـونا *** وبالســـتر

درجني لا انبتر *** واسندني إن عتر

مما سبق نقرأ أن ود سعد وعى الدرس وعرف قيمة الشعر، ولذلك بذل مجهوده، وجود صنعته حتى سارت شهرته بين الركبان. وقد خدم الثورة بشعره الشعبي الذي دخل كل بيت من بيوت الأنصار وسدت القصيدة الثورية مكان الأغنية الخليعة التي شاعت في أيام التركية (حسن 1974م. 18). كل ذلك كان وراء اختيار هذه الدراسة لود سعد ليكون أنموذجا تقرأ من خلاله صورة الخليفة عبد الله، وتفتح الباب لقراءة شعراء آخرين مضيفة إلى الأدب السوداني ملمحا من الدراسات النقدية التي تتوسل بالدراسات الثقافية لإثراء الدرس النقدي في السودان. وتفتح الباب لحورات في المنهج وفي مساءلة التاريخ عبر بوابة الأدب عموما الذي –في رأيي- أصدق من يتحدث عن المسكوت عنه في الثقافة من أجل بناء وعي بالذات وإعطاء مفاتيح بناء مستقبل يتأسس على إيمان بالهوية الثقافية، وبالهوية الإنسانية.

الدراسات السابقة

غالباً ما يدرس الشعر في عهد المهدية ضمن تطور الشعر في السودان، وثمة دراسات تناولت الشعر السوداني؛ منها دراسة عبده بدوي، ومحمد محمد علي،.... وكل الدراسات تحدثت عن سمات هذا الشعر ومضامينه وأساليبه مع إبراز دور اللغة. أما مع مستوى عنوان هذه الدراسة فلم أجد عنواناً بالمعنى نفسه، ربما يتم الحديث عن الشعر في عهد الخليفة عبد الله بوصفه مرحلة مهمة من مراحل الدولة المهدية، أو بوصفه مرحلة شعرية مهمة في تطور الشعر السوداني. ولا شك أن تلك الدراسات مثلت إطاراً مرجعياً مهماً لهذه الدراسة، وأبرزتها دراسة مختلفة كونها تستنطق النصوص الشعرية؛ لتقف على صورة الخليفة عبد الله من خلال شاعر مهم هو أحمد وسعد، وهو من شعراء الشعر الشعبي الذين أسهموا في كتابة تاريخ المهدية من خلال الشعر، وألهب الوجدان السوداني بشعره، ولا يخفى دور الشعر الشعبي في اختراق جدار الرهبة والفزع الذي وقف عنده الشعر الفصيح "فالمعركة التي أحجم عن خوضها الشعر الفصيح بالقدر الذي وصل إلينا خاضها الشعر الشعبي فشاطر الناس أحزانهم وترجم عن أشجانهم"(محمد علي.1966م.253، 268)، وبالجملة فإن "الشعر الشعبي نص تاريخي أصدق مما يكتبه الأجانب... لأنه صور صادقة لما كان يعتمل في صدور الناس" (محمد علي.1966م. 230). فضلاً عن ذلك فإن الاهتمام بالشعر الشعبي قليل على مستوى الدرس الأكاديمي، وهو محفّز لتناول صورة الخليفة في الخيال الشعري الشعبي.

صورة الخليفة بين الو اقع والخيال

أولاً: صورة الخليفة عند المهدي/الو اقع:

صور المؤرخون التحاق الخليفة عبد الله بالمهدي صورةً فيها نوع من (الدراما)، بل ذهب بعضهم إلى أن الخليفة هو من قدح بفكرة المهدية في عقل المهدي، وظل يلهب أوارها حتى اشتعلت ثورة دينية وإصلاحية وسياسية (شبيكة.1972م. 124).

ربما هذا ما دفع المهدي إلى إصدار منشور في حقه ووظيفته "اعلموا أيها الأحباب أن الخليفة عبد الله خليفة الصديق... وهو مني وأنا منه، وقد أشار إليه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، فتأدبوا معه كتأدبكم معي، سلموا له ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي، وصدقوه في قوله، ولا تتهموه في فعله،

فجميع ما يفعله بأمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أو بإذن مني"، (أبوسليم. لات.66). بل يذهب المهدي أكثر من ذلك عندما يقرر أن الخليفة أوتي الحكمة وفصل الخطاب، فهو فقيه حكيم، لا يأتي بأمر مخالف لا على مستوى القول ولا على مستوى السلوك، وإذا خالف ذلك الواقع فعلى الناس تأويله تأويلاً حسناً يناسب الحق، أو الحقيقة، أو الواقع، فهو إنما يتحدث بعلم الله. وينهاهم عن الوسوسة في حقه والاختلاف معه، وحسده. "وأعلم أن جميع أفعاله محمولة على الصواب (أبوسليم. لات. 67-69)."ويوجه خطابا غير مباشر لأبناء عمومته الأشراف "فمن كان في صدره حرج من أجل حكمه فذلك لعدم إيمانه وخروجه من الدين"(أبوسليم. لات. 67).

رسم المهدي للخليفة صورة مماثلة لصورته، ووقف على ذلك بالخطاب المباشر توجيهاً أو تهديداً. وهذا الأمر ربما هو ما مكّن للخليفة من إدارة دولة المهدية بكل حزم وثبات، وهو يلوح بوثيقة البيعة هذه في وجه خصومه، وفي وجه أنصاره بوصفها من أصل الدين، فمن وقف في طريقه قد وقف في وجه الدين؛ ويصنف مارقاً، أو مرتداً، وينفذ فيه حكم الدين. الدين الذي يعتمد على معرفة الخليفة بالمهدية، حيث الخطأ ممنوع كونه مكلفاً من النبي (صلى الله عليه وسلم) مباشرة.

فعلي مستوى الواقع دعم المهدي صورة الخليفة ومكنها من مفاتيح إدارة الدولة، وقد صادف ذلك استعداداً في شخصية المهدي، فأحسن استخدام هذه الصورة، وتمكن من عبور أزمات كثيرة ما كان يستطيع عبورها لولا استناده إلى هذه الوثيقة؛ خاصة فتنة الأشراف، وفتنة الشرق، وإشكالات قادة الجيش...الخ. (انظر: مكي شبيكة. ونعوم شقير، ومحمد سعيد القدال).

ورغم نجاح المهدي في تجاوز فتنة الأشراف، فإن ما في الصدور بقي فيها، يؤكد ذلك واقعة حبس محمود ود أحمد، وأحمد ود سعد، وكيف أن ود سعد لم يقدِّر أن الخليفة إنما يصدر في أفعاله بتفويض من النبي (صلى الله عليه وسلم) عبر المهدي، فهو حتماً يصدّق أن دولته سوف تمتد لتطهر الأرض وتملؤها عدلاً بعد أن مُلئت جوراً.

وفي الرأي أن صدى تلك الفتنة انعكس على مستوى التكوين الثقافي الجهوي بين الشمال والغرب، وظلّت النظرة الدونية من قبل الشماليين (خاصة الجعليين) محل تفسير كثير من الشكوك، ولعل موقف محمد محمد علي من الخليفة ما يؤكد ذلك إذا كان واعياً بذلك أو غير واع، فهو يقول معلّقاً على أبيات الشاعر محمد أحمد هاشم:

فخليفة الصديق عبد الله نجـ*** ـل في العـلا قد طارا

من شيّد المهدية الكبرى لنا *** بالسـيف حتى أرهب الفجارا

قمر الهداية والولاية قطبها *** ورحى المعارف رفقة ومنارا

"هذا الشعر ينسج ثوباً فضفاضاً غير مطابق لقامة الخليفة عبد الله"(محمد علي.1966م. 173). هذا التعليق -في رأيي- ينطلق من خلفية ثقافية نيلية -إذا صّح التعبير- لأن محمد محمد علي لم يعلّق على الأبيات التي تمدح علي ود حلو، والخليفة شريف، وقد بالغ الشاعر في مدحهما. وصمته عن ذلك يدلل على أنه يوافق على ذلك. بينما ينكره في حال الخليفة عبد الله، بل يذهب أكثر من ذلك ويقرر "أن خليفة المهدي عبد الله لم يكن يمتاز عن سائر رجال المهدية بشيء سوى أنَّه من أوائل الذين صدّقوا المهدي واتبعوه، وهذه الميزة وإن كانت عظيمة في نظر المهدي، فإنها لم تكن موقع التسليم والإكبار من جميع أتباع المهدي"(حسن 1974م. 16).هكذا (من جميع) بإطلاق يجافي العلم، يؤكد محمد محمد علي تحامله على الخليفة(حسن 1974م. 16). ويسيء من حيث لا يقصد إلى المهدي كونه لا يعرف تقييم الرجال.

واقع الحال يؤكد أن المهدي عرف قيمة الخليفة عبد الله، كونه يمثل نجاح المهدية بامتياز بوصفه من الغرب، حيث حدد المهدي أن يكون ثقل دعوته وقوامها من هناك، وفي إعلاء الخلفية ذكاء يحسب للمهدي كونه ربطه بفكرة المهدية نفسها محل صدورها الإلهي حيث الحضرة هي مجلى الألهي. ومن ورائه ربط الغرب كله فضمن نجاح الثورة. وما كان المهدي إلا ليختار شخصاً يمثله ويقوم مقامه وقد فعل من وجهة نظري. ويمكن قراءة صورة الخليفة من كل ذلك بأنه رجل ذكي، وقوي، وطموح، ومثابر، ولبق، وبليغ، كل هذه الصفات هي ما دفعت بالمهدي إلى اختياره؛ فأتم المهدية بامتياز حسده عليه أعداؤه محلياً وعالمياً.

ثانياً: صورة الخليفة عند شعراء المهدي /الخيال:

يلاحظ أنّه ربط الشعراء في عهد المهدي بين صورته بوصفه منقذاً وقائداً ورجلاً صالحاً وبين خلفائه، ويندر أن نجد قصيدة يُمدح فيها المهدي لا يعقب الشاعر بذكر خلفائه على الترتيب: الخليفة عبد الله، ثم الخليفة على ودحلو، ثم الخليفة محمد شريف. وكذلك الأمر في رثاء المهدي،

بل وحتى في هجائه كان هجاء الخليفة عبد الله حاضراً. هجاه الشيخ محمد شريف في رائيته التي مطلعها: (شقير، 1981، 334).

وقد جاءني في عام زرع لموطن *** على جبل السلطان في شاطئ البحر

يصحبه شيطان من الجن آيس *** وشيطان إنس وافقاه على الضُرّ

علّق محمد محمد علي على النص"فمن هو شيطان الإنس؟ يظهر لي أنه يريد الخليفة عبد الله التعايشي فقد كان خصوم المهدي يرون أن عبد الله هو الذي زيّن له إدعاء المهدية، وأغراه بها"(محمد علي.1966م. 112).

وأما في المديح فيقول ودسعد في المهدي:

الله أكبر ظهر المهدي صدر الصدر *** سدرة المنتهى وبدر البدر

ثم يصل إلى الخلفاء ويبدأ بالخليفة عبد الله:

سيِّدي عبد الله أوّل الخلفا *** كعبة الزائرين وجبل عرفه

كلامو لي داء القلوب شفا *** الرسول باغض كل من جافا

(حسن 1974م. 61 -62).

فقد تحوّل الخليفة إلى أماكن مُقدسة لشعائر الدين (الكعبة/ جبل عرفه) والصورة توحي بمكان الازدحام في صدق توحيد الهمة، ولهذا طبيعي أن يقارب كلامه القرآن في خيال الشعراء، فهو شفاء لداء القلوب، والقلوب هي محل التلقي العرفاني، وهو بعد ذلك محروس ومبارك من الرسول (صلى الله عليه وسلم) كونه يبغض من يبغضه. كل ذلك بطبيعة الحال تحت المقام العالي (سدرة المنتهى)مهدي الله وبدر البدر في دلالة باطنه لنور النور في خيال موسيقي يكسب النص قيمة الحضور على مستوى التلقي.

هذا التشيوء هو الجديد في رسم سورة الخليفة، بل في المدح بوصفه غرضاً في الشعر السوداني.

وفي نص أخر يقول بعد أن يمدح المهدي: (حسن 1974م. 65).

أفضلهم لا خلاف سيدي عبد الله *** أكـــرم الأسـلاف

يرحم الأيتام وللضعيف رعّاف *** من ثياب النور لاوي عمه ولاف

ثمة صفات قيمية: أكرم الأسلاف، يرحم الأيتام رعّاف للضعيف ومتدين، ويظهر الخيال في (من ثياب النور لاوي عمه) والعمة رمز وهوية، وهي عمة من نور، وكونه في الأعلى فهي منارة تهدي السائرين في طريق المهدية، وتدل الضالين طريق الرشاد. وبروز قوة الإدارة والفعل (لاوي، ولاف) فهي فعل كسبي وقد استحقه بجدارة.

وفي الرثاء جاء ذكر الخليفة بعد بكاء المهدي؛ ليدلل على استمرار الدعوة، وإقرار بأحقية الخليفة في قيادة الركب. يقول الشيخ إبراهيم شريف الدولابي راثياً المهدي: (محمد علي.1966م. 165).

إذا توارت في الثرى شمس الهدى *** فهناك بدر هدى عظيم النور

أبقاه مهـــدي الإله وراءه *** خلفاً يسير بسـيره المشهور

هو ذاك عبد الله نجل محمـد *** وسع الورى بالحلم والتدبير

لاحظ الربط بين الشمس والقمر في مركز الكون (المصدر والعاكس) وارتباط الحياة بهما، وكلاهما مضاف إلى الهدى مع الاختلاف بين المضاف إلى معرفة/حقيقة؛ وهو المهدي، والمضاف إلى نكرة أفادت تخصيصا فقط لا تعريفا، فلكلٍ مقامه المحفوظ.

ولهذا كان منطقيا أن يأتي الكلام بعده: أبقاه خلفاً، يسير بسيره، المشهور، فهو طريق قد حددت معالمه وليس أمام الخليفة إلا السير وفقه، ولهذا كان وصف الخليفة بالحلم والتدبير؛ عقل محكم في تدبير الأمور المعروفة. وهو وصف الخليفة بأنه تابع ليس إلا يفعل ما قرره المهدي.

وفي رثاء الشيخ إسماعيل عبد القادر للمهدي يقول:

وقد جبر الله الوجود بأسـره *** وأعلى منار الدين حقاً وشيدا

بهدى الذي قد قام فينا مقامه *** خليفة هادي الورى قامع العدا

(محمد علي.1966م. 167).

كأنما تقليد الخليفة بعد وفاة المهدي قد جبر الوجود به بعد مصيبة الموت، وهو قد قام مقامه من الهداية وقمع الأعداء، وهي صفات تصنف الخليفة عالماً هادياً، وفي الوقت نفسه قوياً شجاعاً قامعاً الأعداء. وأي أعداء؟ وقد لخّص محمد محمد علي صورة الخليفة عبد الله في شعر السلاوي بقوله "فالخليفة عبد الله في شعره (يعني شعر السلاوي) شخص آخر غير الذي صوّره المؤرخون في كتبهم، وغير الذي وصلت إلينا أخباره ممن عاصروه. فهو خليفة مهدي آخر غير الذي نعرفه، خليفة يكون سحبان وائل بجانبه باقلاً، وسكان الأرض والسموات قد خلقوا لأجل نصرته. وهو رجل أميّ أو شبه أميّ!!"(محمد علي.1966م. 252).

لعل نبرة التحامل لا تخفي في تعليق محمد محمد علي، وقد أسلفت كيف يتحامل على الخليفة، لكنني أشير إلى تناقض هذا الرأي مع رأي سابق ذكره في تعليقه على أبيات محمد شريف في هجاء المهدي، حيث قال إن خصوم المهدي يدّعون أن الخليفة هو من زيّن للمهدي القيام بدعوته، وهذا دلالة على الذكاء وقوة الشخصية والحجة. والفضل ما شهدت به الأعداء. وهذا ودسعد يقرر معرفة الخليفة للكتابة والقراءة: (حسن 1974م. 119).

يا سيّد حطّي وهوّز وأبجد *** شمرّت في الطاعات عند ساعة الجد

فهو سيد الحروف بإطلاق كما يزعم الشاعر.

صورة الخليفة في مخيال ود سعد الشعري

أولاً: رسم الشخصية وبطاقة التعريف:

لما سمّى مورخو الأدب العربي الشعر بأنه ديوان العرب، فقد حددوا القيمة المعرفية للشعر، ومن خلاله تعرفوا على حيوات العرب فيه. من هذا المنطلق أحاول الوقوف على ملامح شخصية الخليفة عبد الله، وبطاقة تعريفه في ما قال ودسعد:

خليفة المهدي الجاهو باهي *** باهت به الأعصار يا مباهي باهي

(حسن 1974م. 118. وانظر: ص107، 133).

شاع اسم (خليفة المهدي) اسماً لعبد الله التعايشي في مدائح ودسعد، وهو هنا من نسل طيب؛ غرّ الجباه دلالة على اللون الأبيض؛ إذ الغرّة بياض شعر مقدمة رأس الفرس، وهو دليل نجابة وعراقة في الخيول وجمال بعد ذلك. وهنا في سياق الأبيات تدلك على عراقة أصل الخليفة بارتباطها بالنسل الطيب (سليل الطيبين) وعلى بياض اللون: (حسن 1974م. 118).

أصلك زكي وصفي يا سيد السُّبكي *** وأصفى من الأبريز من بعد السبك

ثمة تركيز على اللون وصفاته علامة بارزة في توصيف الخليفة وفي ارتباط ذلك بأصله: (حسن 1974م. 130).

في وسط الحراب واقفات كنجه *** أنوارك تلوح فوق جبّة (القنجة).

بياض في بياض وسط سواد والضد يظهر حسنه الضد، وجبة القنجة جبة من الدمورية الخشنة وهي لباس للحداد في الثقافة السودانية خاصة حداد النساء لقربى الدم. وفيها دلالة الزهد والتواضع عندما يلبسها الخليفة وسط جنوده متساويا معهم. (حسن 1974م.68، 131).

خليتم مثل البوم والكلجه *** عجبت الرسول يا أبجهة بلجا

وأحيانا يسميه باسم (عبد الله) مسبوقاً بمفردة سيّدي تأدباً: (حسن 1974م. 118، 60).

ياسيدي عبد الله فقت لي السبقو *** ليك مقام الصديق حدقوا

سيدي عبد الله أول الخلفـا *** كعبة الزائرين وجبل عرفه

فهو سيدي عبد الله خليفة المهدي الذي يقابل خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبوبكر الصديق والشاعر يركز على ذلك حتى تنسحب الصفات من المشبه به إلى المشبه.

فأنت لن تعثر على ترجمة كاملة للخليفة عبد الله من خلال شعر ود سعد فهو الخليفة عبد الله خليفة المهدي وهذا اسم كان -في رأي كافياً- للسائل وللخليفة على السواء وفي ربط الاسم بالمهدي تأكيد على السير في طريقه، وقد قال المهدي الخليفة مني وأنا منه، أكد ذلك ود سعد

يا الناهي عن اللهو *** المهدي تشبهو

تالله ربه *** هو أنت وأنت هو

(حسن 1974م. 121، 124).

ومن خلال هذه الأشعار نتعرف على بعض الصفات الشخصية للخليفة لعل أولها الوجاهة المتمثلة في بياض اللون وصفائه، وكونه أصيلا من سليل أسرة مروقة: (حسن 1974م. 36).

ود سعد أمدح سيدك الأفخم *** وارث الصديق الخيره ما بنخم

فهو فخم بكل ما تحمل الكلمة من دلالات العظمة وجمال المظهر وهو فوق ذلك كريم (خيره ما بنخم) وهو حلو الحديث يأسر بحديثه قلوب مستمعيه: (حسن 1974م. 62).

كلامو لي داء القلوب شفا *** الرسول باغض كل من جافا

عمّرت الكون بعمـارك *** صغوا لي سـمع مزمارك

(حسن 1974م. 107)

يا القولك لذيذ أحلى من الشهد *** راجي الله معاك لا أنقض العهد

وبعد ذلك تطرق ودسعد في قصيدة يتيمة إلى أولاده وذكر منهم اثنين هما (عثمان ويوسف) (حسن 1974م. 118، 121).

يا خليفة ثاني اثنين ** والمهدي نور العين

يا والد عثمـان ** بك نعمـة الدارين

أبو يوسف نمدحـو *** نسلق لي اليقدحوا

لا أدري لماذا صمت الشاعر عن أولاد الخليفة الآخرين وعن إخوانه وخاصة يعقوب جراب الرأي والذي ربما يناله رضا كونه من عترة الطيبين. وهل ثمة دلالة وراء نسبة "والد" إلى عثمان و "أب" إلى يوسف من حيث القرب إلى القلب، أو أن كنية الخليفة أبو يوسف بوصفه أكبر أولاده (حسن 1974م. 90)، وعثمان أصغرهم لارتباطه بالولادة والتعهد بالرعاية. كلها قراءات ممكنه وهي عملية تؤكد صلاحية أن يكون الشعر مصدراً للمعرفة التاريخية. وربما تكون مناسبة للدعوة إلى استكمال كتابة تاريخ السودان باعتماد الشعر مصدراً تاريخياً بجانب الأدب السردي (القصص والروايات) التي تسرد التاريخ.

ثانياً: الصورة في إطار الدين والسياسة:

لمّا كانت الثورة المهدية هي في الأصل دعوة دينية تبنّت خطاً سياسياً في مقاومة الأتراك لإقامة الدين، فإنه قد حدث تداخل بين الدين والسياسة، السياسة بمفهوم بناء الدولة وما يتبع ذلك من عقبات، كانت -أهمها- على مستوى فترة الخليفة فتنة الأشراف وتمرد بعض القبائل، وغير ذلك مما مثل تحدياً واجهه الخليفة كرجل سياسة استناداً إلى خلفيته الدينية التي شرعت له منصب الخليفة نفسه.

هذا الوضع ربما يحدد بعض ملامح شخصية الخليفة، فكيف كان يبدو عندما يلبس عمامة الدين، وكيف يكون مظهره في زيّ السياسية من خلال عدسة الشعر وخيال ود سعد: (حسن 1974م. 118، 33).

خليفة أبوبكر العقل وافـر تام *** القطع المسافة بي الصيام والقيـام

البحر الصّعيب عومه على العوام *** فوق ظهر الجيوش بي حالـهم ينام

كلامو حلو كالماء للصّيــام *** في أصحاب الإمام كالجمعة في الأيام

وسيوف الحرب ما ليها غيره قيام

تمام العقل أساس التكليف، ومناط الرياسة والسيادة، وميزان الحكم؛ حيث قوة الرأي والسيطرة على الأمور. تعضد رجاحة العقل والحكمة نفسٌ تقيّة ورعه (الصيام والقيام) وهما عبادتان تدلان على عبودية العبد وصدقه في عبادته. وبعد ذلك حسن الحديث والمنطق، وأثر ذلك في نفوس مستمعيه (الصِّيام)، وهو علامة فارقة بين أصحاب المهدي (هو يوم الجمعة) الجمعة ودلالتها الدينية والاجتماعية. ثم شجاعته في قيادة الجيوش ومقدمة الصفوف، مقدماً أنموذج القوة الذي سنه المهدي. أفلح ودسعد في تخييل المسافة بين الدين والسياسة، فعلى مستوى الوصف الديني استحق تمام التكليف عقلاً، كما ظهر ذلك في عبادة الخصوص (صياماً وقياماً) وهو يوم جمعة/عيد للمسلمين في استقبالهم وأريحيتهم، ليّن الجانب، حلو الحديث في تعامل بالحسنى هو أس المعاملة التي هي الدين.

وعلى مستوى السياسة هو راجح العقل؛ حكيم، قوي الرأي والنظر، منطقه حاسم، قائد صارم، يتقدم صفوف جيشه.

نفسه الرضـــيه العاقلا *** بعقال الشـرع معقله

المطربا

راكب نجيـب الحوقلـه *** يطوف سـواكن ودنقـلا

سيدي عبد الله صعيب شرحك *** على لسان الناس خالقك مدحك

تذكر الله إن ركـبْ قارحك *** بي لسانك وقلبك وجوارحـك

أصلك ثابت في أرض المسك *** مسقي بمـاء التقوى والنسك

(حسن 1974م. 62).

وقوله: (حسن 1974م. 62).

قلبك نقي ورزين *** وريان من سرِّ السين

أحمد سعد معتاد *** مديحك يالاستاذ

يا سيد الأوتاد *** أسقيني بالورّاد

وفي قصيدة كاملة طغى عليها الوصف الديني يقول فيها: (حسن 1974م. 119).

في بحر التوحيد جيهت عومك *** في يم المغفرة غَسَلْ هدومك

من كنز الحوقلة أنفقت قومك *** في الفضل والقرب كذب اليقول قولك

من نور جلال الله وجمالو مكسي *** أبيك رسول الله معنى وحسّ

نصوص تعبر في وضوح عن صلاح الخليفة، وتقدم صورته في غاية التدين مع مسحة صوفية واضحة تذكر بلغة التصوف في التاريخ الإسلامي، ويحسب لود سعد قدرته التخييلية العالية في استخدام اللغة الشعرية الاستعارية (مسقى بماء التقوى والنسك، نابت في أرض المسك، السقيا بالأوراد، بحر التوحيد، ويم المغفرة، كنز الحوقلة، الكساء من نور جلال الله، وأبوه النبي (صلى الله عليه وسلم) معنى وحسا). كل هذه المعاني إن دلت على شئ فإنما تدل على ثقافة الخليفة الدينية، وطول باعه في علوم الدين، مما يفتح الباب لمراجعة كثير من أقوال المؤرخين في حق الخليفة، والتقليل من قدرته العرفانية ومعارفه العلمية. ولعل ذلك وفي المقام الأول -بجانب صفاته الشخصية- هو ما جعل الناس تسلّم القيادة له وتبايعه حتى الأشراف بادئ الأمر: (حسن 1974م. 140)

وارث مهدينا *** الجدد لي عباد الله دينا

كونك صفينا *** عن الوالد والمولود بيك التقينا

جزاك الله خير *** أحسنت فينا

وبطبيعة الحال رسوّ السفينة مسألة في غاية الصعوبة إذا كانت تسير في بحر متلاطم الأمواج تحتاج رباناً ماهراً وحاسماً وسياسياً:

يا أبا يوسف خصماك شرقو *** في طوفان الهول غير شك غرقو

البعادي المهدي إن مسك شدقو *** عرقو بتسلّو وَتْحِتْ وَرَقُو

(حسن 1974م. 60)

ركبتَ كشفت لي خمارك *** دقيت في النقس مسمارك

(حسن 1974م. 62)

الناس السعاد لي دولتك خدمو *** جميع المفسدين بي سيفك انعدمو

نبي الله الخليل قدمك على قدمو *** بئس الخالفك واحسرتو وندمو

(حسن 1974م. 62)

جاءت صفات السياسة في حسم الخلافات في الشرق (تسل عرقو وتحت ورقو) حسم تام من الجذور، في استعارة دلت على القوة والحسم التام للمشكلة، والنقس هم الأحباش ودق المسمار موت للشجر وحسم للأمر، وهو على مستوى السياسة يستخدم السيف.

ثمة فرق واضح بين الشخصية الدينية الصوفية الغارقة في الزهد والعبادة، الغارفة من أنوار القوة، والعارفة بالله وجماله وجلاله، وتُمثِّل ذلك سلوكاً وسم الشخصية. وبين الشخصية السياسية الذكية والحاسمة، والقاسية أحياناً، والقوية والمصادمة... الخ. في تخيل يضع صورة الخليفة في تمامها رجل دين ودولة بمعنى الكلمة.

ثالثاً: الصورة محمول القيم:

الصورة هي المحمول لأنها محل النظر/التلقي وجمال الصورة هو مفتاح التواصل والتأثير، ومن ثم البناء في الثقافة؛ لتصبح سلوكاً يحدد هوية الشخص. والقيم هي الصفات المطلوبة والمعاني المرغوب تمثُّلها في السلوك، وهي محل إجماع الجماعة بوصفها موروثاً ثقافياً يحدد هوية من ينتمي للجماعة/الخاص، وللإنسانية/العام.

والشعر -في رأي- كان عند العرب محل إنتاج القيم، وفضاء لترويجها، ومن بعد عمل الأدب على ذلك فاكتسب قيمة حضوره الفاعل.

تناول ود سعد عديد القيم التي انتظمت الحياة في عهد الخليفة عبد الله، وأشّرت إلى ثقافة العصر، وفتحت من ثم الباب لتأويل بعض السلوك وتفسيره بناء على الصورة الشعرية محمول القيم. (حسن 1974م. 62)

خليفة الصديق به *** الحزن ما بنشـتهِ

كذا يا إخوان هذه *** كذا الصديق البهي

(الحزن) قيمة إنسانية كونية، وعلى المستوى النفسي غالباً ما تظهر على محيا الحزين، ولكنها هنا مع الفقد الجلل -موت المهدي- فإن الشاعر يقرر أن الحزن/القيمة الإنسانية لا تعرف لها مظهر (غير مشتهاة) وهو لايجد تفسيراً لذلك في تصوير بليغ للعجز عن الإدراك (كذا يا إخوان هذه)، ولكنه يربط بين طبيعة الخليفة (البهاء) حيث يطغى على الحزن. فلا يظهر مع إقراره بوجوده.

حَبّ أبي الفاضل في مفاصلك خش ** من نشيت صادق ما بتحب الغش

المن حبَك قلبـــو تركش *** في الخريف أبسيل ما بشُوف الرّش

(حسن 1974م. 68)

يصور محبة الخليفة للمهدي والحب قيمة عظيمة مفتاحها الصدق- حب الشاعر- والصدق قيمة أخرى هي مفتاح العلاقة مع الآخر، بل هي أسس المعاملة في الدين (المؤمن لا يكذب) كما في الحديث. وجمال الصورة في أن محبة المهدي تغلغلت في مفاصل الخليفة محل الحركة والسكون، ثم تأتي صورة إمتلاء قلب المهدي بمحبة الخليفة حتى غلبه فمال القلب وسال محبةً شملت الخليفة ومن حوله، وهي صورة أكدها بأن الخريف الماطر (السيل) لا يعرف الرشد، بل يأتي دفعة جارفة في تناغم واضح بين مكونات البيئة والثقافة، المحبة والصدق والامتلاء والخريف. ومفردة (تركش) تحيل إلى قلب الثقافة. (حسن 1974م. 107)

خليفة المهدي المبارك *** بكت لله أبصـارك

ملآن بالسر لأظفارك ***صدوق ومصدق أخبارك

الصورة (ملأن لأظفارك) حد الامتلاء بالسر الالهي حيث مجلاه التقوى، ومعياره الصدق؛ القيمة الضابطة. (حسن 1974م. 119)

ثياب الزول الحق شرطت زيقه *** ما ابتخطا في الأحكام ولو دقيقة

لإقامة الحدود سـيفك نضيتو *** أديت عبوديتك ومولاك أرضيتو

قيمة العدل -أساس الملك- عبّر عنها (شرطت زيقه) والزيق هو الطرف من الثوب؛ دلالة على المواساة حتى يستقيم وحجم الشخص /الزول. وهو صورة المساواة آلية العدل، فالصورة حملت القيمة وربطتها بالزمن في دلالة على النفاذ، ومن حكم عليه أن ينفذ، حيث لا قيمة لحكم/عادل من غير نفاذ، وهو في إقامة العدل يقف عبداً أمام مشيئة الله: (حسن 1974م. 119)

درّجت العرج والكسر جبرتو *** والقاصد طريق مولاه خبرتو

قيمة الصبر في صور (درجت العرج)، وقيمة المواساة وجبر الخوطر في صورة (الكسر جبرتو)، وقيمة الهداية في صورة (القاصد الى مولاه خبرتو).

ثمة ربط بين الصورة والقيمة بالثقافة، وهوما أتاح مساحة للتلقي، وربما يفيد في تفسير سلوك الخليفة في بعض المواقف؛ مثل موقفه مع أهل الشرق وكيف صبر عليهم ودرجهم. وغير ذلك من خلال أحكامه الحاسمة؛ كما فعل مع أحد القاضاة الذي ثبت أنه ظلم في حكمه فعوقب على ذلك في دلالة على العدل وسرعة النفاذ.

الخاتمة

سار الشعر في عهد الخليفة عبدالله على خطى الشعر في عصر المهدي من حيث المضامين، وطرائق التعبير؛ من شعر فصيح إلى شعر شعبي، ومسادير. وقد تناول الشعراء موضوعات المدح والرثاء والهجاء.

برز الشعر الشعبي مصوراً للحياة في عهد الخليفة، ومعبراً عن طبيعة المرحلة التي كان قطب الرحى فيها الخليفة، ومن ثم جاءت الأغراض تدور في فلكه مؤشرةً إلى الحياة في عصره عموماً. وقد اعتمد ود سعد في شعره على مرجعية نظرة المهدي للخليفة عبدالله وبنى عليها شعره فيه.

تناول ود سعد صورة الخليفة الشخصية، وأسرته مضيفاً خياله في تصوير العلاقات، ومبرزاً صورة الخليفة كونه رجل سياسة يركب مصاعبها بحزم وسعة صدر وحلم عقلن به سلوكه مع خصومه. وكونه رجل دين زاهداً وورعاً وصوفياً فانياً في ذات المحبوب، وداعية لم يبخل بعلمه.

حملت الصورة الشعرية مضامين القيم وربطتها بالواقع مؤشرةً إلى ثقافة ذلك العصر، ومستشرفةً معاني الثورة المهدية بوصفها دعوة لإحياء الدين، والدين نظام من القيم يتمظهر في سلوك الناس استناداً إلى مرجعية الكتاب والسنة واجتهاد المهدي ومن بعده الخليفة.

وقد تجلّت الثقافة من خلال صور ود سعد الشعرية في مفردات: (الكنجه، القنجه، والكلجه، حدقو، البحر الصعيب عومو، قلبو تركش، الخريف أبسيل ما بشوف الرش، شرط زيق الثياب دلالة على الحق/المساواة لكل من فات الحد، درجت العرج، جبر الكسر...الخ). وكلها مفردات هي علامات للثقافة المحلية وتؤشر الى مضامين قارّة في وعي المتلقي عبر تخييل غلبت فيه موسيقى الشعر الشعبي خاصة في الاهتمام بالقافية وتنويعها.

وهذا بطبيعة الحال يؤيد فرضية أن الشعر مجلى الثقافي، ومظهر للتاريخ، وهو ما يعطي هذه الدراسة قيمتها على مستوى الثقافة، كونها تندرج تحت الدراسات الثقافية، وقد استعانت بالمنهج الوصفي التحليلي.

من أهم نتائج هذه الدراسة أن حقيقة الخليفة عبدالله وصورته قد شوّهت كثيرا على مستوى الدرس التاريخي، وقد أنصفه الشعر مقدماً صورته بما يقارب كثيرا الحقيقة، لأن الشعر كان يعالج موقفا حيّا يجعل الحكم عليه مباشرا من حيث القبول أو الرفض على عكس التاريخ الذي يكتب فيما بعد وبزمن ليس بالقصير وبعيدا عن الرقيب.

ونتيجة أخرى هي أن الشعر يمكن أن يؤدي دوراً حاسما بوصفه وثيقة تاريخية مما يدفع باعتماده في استكمال كتابة تاريخ السودان.

وبطبيعة الحال فإن خيال الشعراء حمل القيم في إنتاجهم فأعطاها مفتاح النفاذ إلى المتلقي(المجتمع)، مع الانفتاح على المستقبل في ربط الثقافة بالهوية كون الثقافة مرتبطة بالبيئة والهوية هي تمثُّل الفرد لقيم الثقافة في سلوكه وفي ارتباطه بالمكان(البيئة).

المصادروالمراجع

- أبوسليم، محمد إبراهيم، (لا ت.) منشورات المهدي (د.ط).
- حسن، قرشي محمد، قصائد من شعراء المهدية،المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون. ط:1 السودان. 1974م.
- خليل، سمير، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية: إضاءة توثيقية للمفاهيم المتداولة. دار الكتب العلمية. 2014م.
- خليل، سمير، النقد الثقافي. من النص الأدبي الى الخطاب، ط: 1. دار الجوهري، بغداد، العراق. 2016م.
- شبيكة، مكي، مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط، المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم. كعهد البحوث والدراسات العربية. القاهرة. 1972م.
- شقير، نعوم، تاريخ السودان. تحقيق وتقديم: محمد إبراهيم أبوسليم. دار الجيل، بيروت. 1981م.
- القدال، محمد سعيد، (لات.)، المهدية والحبشة: دراسة في السياسة الداخلية والخارجية لدولة المهدية، دار التأليف والترجمة والنشر. ط:1. جامعة الخرطوم.
- قاسم، عون الشريف وآخرون، معجم أدباء السودان. الهيئة القومية للثقافة والفنون. 1994م.
- محمد علي، محمد، الشعر السوداني في المعارك السياسية، مكتبة النهضة الجديدة، القاهرة. 1966م.